

إسهام فجي نفسانيات النحو أبجمل العربية والذاكرة

د. كات بكدش

1 - مقدمة

ظَهَرَ خلال السنوات العشرين الأخيرة العديد من الاعمال حول نفسانية النحو ، واستوحى الباحثون هذه الأعمال بصورة اساسية من نظرية النحو التوليدي والتحويلي للغوي الاميركي نوام تشومسكي (حول هذه النظرية أنظر: 1965, 1957, CHOMSKY 1973 SEARLE, سيرل, 1979). يُقصد بالنحو grammaire في هذه النظرية (1) الكفاية او القدرة اللغوية التي يمتلكها المتكلم ، (2) والنموذج النظري الذي يتضمن مجموعة القواعد التي تسمح بتكوين كل الجمل الاصولية في لغة معينة . تتألف مجموعة القواعد هذه من قسم رئيسي يُدعى التركيب Syntaxe الذي يؤدي الى توليد générer مجموعة لا متناهية من الجمل ، ومن قسمين تأويليين : قسم يؤدي الى التأويل الدلالي وقسم يؤدي الى التأويل الفونولوجي . ويُتميز في التركيب ايضاً قسمين : قسم اساسي يتضمن قواعد توليد البنية العميقة للجمل ، اي البنية التي تعين معنى الجمل ، وقسم تحويلي يتضمن قواعد الانتقال من البنية العميقة الى البنية السطحية للجمل ، اي البنية التي تعين التركيب الصوتي للجمل .

حاول العديد من الابحاث في علم النفس اللغوي التحقق بالوسائل التجريبية من النظرية التركيبية لتشومسكي (حول هذه الابحاث انظر: 1974 NOIZET, MEHLER et 1970 PETERFALVI, 1972 HORMAN)

تنطلق هذه الابحاث من الافتراض بأن الاداء اللغوي الفعلي - أي ادراك الجمل وفهمها وانشاؤها واستدكارها - محكوم بهذه الكفاية او القدرة على توليد الجملة النووية او الاصلية Kernel Sentence ومن ثم وعند الاقتضاء على تحويلها الى الصيغ النحوية المختلفة . لِنتناول على سبيل المثال طائفة من التحويلات بالفرنسية : تتمثل الجملة الاصلية في الجملة المُثبتة - الموجبة affirmative - active ، مثال : Le garçon pousse la fille . نقوم بإجراء التحويل السالب وحده فنحصل على الجملة المُثبتة - السالبة - affirm — mative — passive ، مثال : La fille a été poussée par le garçon نقوم باستعمال التحويل النافي وحده فنحصل على الجملة المنفية - الموجبة négative — active ، مثال : Le garçon ne pousse

pas la fille . أما إجراء التحويلين السالب والنافي معاً فيؤدّي الى الجملة المنفية - السالبة négative — passive ، مثال : La fille n'a pas été poussée par le garçon . وتوجد بطبيعة الحال تحويلات اخرى ممكنة كالتحويل الاستفهامي وغيره .

وعليه يمكن أن نتوقع في مجال الاداء اللغوي ان يُصاحب هذا التزايد في «التعقّد التركيبي» للجمل والناجم عن تزايد عدد التحويلات صعوبة متزايدة في إنشاء هذه الجمل وادراكها وفهمها واستذكارها . فقد دَرَسَ ملر (MEHLER, 1963) على سبيل المثال استذكار بعض الجمل التي تنتمي الى طائفة من التحويلات ولاحظّ التفاوت في درجات تذكّرها تبعاً لعدد التحويلات التي خضعت لها هذه الجمل وتقدّم بالتالي بالفرضية التي تنص على ان الجملة تُحفظ في الذاكرة بصيغتها الأصلية المثبتة - الموجبة مضافاً اليها التعليمية أو التعليمات footnotes / annotations التحويلية المناسبة .

يُجمع هذا النوع من الابحاث في علم النفس اللغوي على ان لعدد التحويلات في الجمل اثراً مستقلاً في درجة تذكّر هذه الجمل : تزداد صعوبة تذكّر الجمل بازدياد عدد التحويلات التي خضعت لها هذه الجمل ، أي بازدياد درجة تعقّدها التركيبي . لقد أمكن التحقق من هذا الفرض بطرق متنوعة للغاية في اللغتين الانجليزية والفرنسية . والحال ان هاتين اللغتين تصفان كما هو معلوم بما يمكن أن يُدعى «الصلابة التركيبية» ، أي ان مواقع الكلمات في الجمل الانجليزية والفرنسية لا تبدل تقدماً وتأخيراً الا في نطاق محدود .

سوف تسعى هذه الدراسة التجريبية الى ان تتحقّق في ضوء نظرية التحويل من الأثر المتفاوت لبعض الصيغ النحوية للجمل العربية في درجة تذكّرها ، والصيغ (ص) المدروسة هي الآتية :

ص 1 : المثبتة المبينة للمعلوم ،	مثال : أَكَلَ الولد الطعام
ص 2 : المثبتة المبينة للمجهول ،	مثال : أَكِلَ الطعام
ص 3 : المنفية المبينة للمعلوم ،	مثال : لم يَأْكُلِ الولد الطعام
ص 4 : المنفية المبينة للمجهول ،	مثال : لم يُؤْكَلِ الطعام

بيد أن اللغة العربية تتصف بما يمكن أن يدعى «المرونة التركيبية» حيث تميز القواعد النحوية لهذه اللغة بتبديل مواقع الكلمات في الجملة تقدماً وتأخيراً في حدود واسعة نسبياً . لذا سوف نحاول هذه الدراسة أن تتحقق من أثر هذا التبديل الموقعي (التركيبي) ضمن الصيغة النحوية الواحدة للجملة على الذاكرة .

وعلى ذلك كله سوف نتناول بالدرس ما تخلفه في الذاكرة التراكيب الجمالية الآتية (مرموز اليها بالأحرف الأبجدية) :

أ : فعل + فاعل + مفعول ، مثال : أَكَلَ الولد الطعام .	ص 1
ب : مبتدأ (= فاعل) + فعل + مفعول ، مثال : الصياد قَتَلَ الذئب .	
ج : مبتدأ (= مفعول منطقي) + (فعل + ضمير عائد) + فاعل ، مثال : الصندوق أَخَذَهُ العامل .	
د : فعل مبني للمجهول + نائب فاعل ، مثال : شُرِبَ الدواء .	ص 2

- ص 2] هـ: مبتدأ (= نائب فاعل) + فعل مبني للمجهول، مثال: الفرض كُتِبَ.
- و: (أداة نفي + فعل) + فاعل + مفعول، مثال: لم يحمل الجندي السلاح.
- ص 3] ز: مبتدأ (= فاعل) + (أداة نفي + فعل) + مفعول، مثال: الموظف لم يفتح الباب.
- ح: مبتدأ (= مفعول منطقي) + (أداة نفي + فعل + ضمير عائد) + فاعل، مثال: الدرس لم يشرحه المعلم.
- ط: (أداة نفي + فعل مبني للمجهول) + نائب فاعل، مثال: لم بدّق المال.
- ص 4] ي: مبتدأ (= نائب فاعل) + (أداة نفي + فعل مبني للمجهول)، مثال: البيت لم يُسرق.

2- أسلوب البحث

تسعى هذه الدراسة التجريبية إذاً الى استطلاع الأثر الذي تخلفه بعض الصيغ والتراكيب النحوية للجمل في عملية تذكّر هذه الجمل. وعليه أجري بحث تجريبي على (20) مفحوصاً (طالبات في السنة الاولى - علم نفس - الجامعة اللبنانية تتراوح اعمارهن بين ٢٠ و ٢٥ عاماً). وُزِعَ على كل مفحوص دفتر صغير وورقة بيضاء وقلم. تتابع على صفحات الدفتر الصغير عشرُ جمل متغيرة مضموناً وتمثل كل منها تركيباً من التراكيب الجمالية المذكورة سالفاً (من أ الى ي). تتكرّر هذه الجمل نفسها مرة واحدة وبترتيب مختلف على صفحات الدفتر نفسه وتُستبقى الصفحة الاولى منه بيضاء فارغة بمثابة غلاف له.

تظهر التراكيب العشرة المدروسة (من أ الى ي) في دفاتر كل المفحوصين، غير أنها:

- 1) تتجسّد عند كل مفحوص في جمل مختلفة عنه عند باقي المفحوصين: فإذا تجسّد التركيب (أ) عند المفحوص الأول في الجملة «أكل الولد الطعام»، فإنه قد يتجسّد عند المفحوص الثاني في الجملة «كُتِبَ التلميذ الفرض»، فيما قد يتجسّد التركيب (د) مثلاً عند المفحوص الثاني نفسه في الجملة «أكل الطعام» وهكذا.
- 2) وتتابع هذه التراكيب في دفتر كل مفحوص بترتيب مختلف عن متابعتها في بقية الدفاتر. ويتيح هذا التنظيم للتجربة والمسمى بخطة المربّع الابجدي* ما يلي:
- 1) تحييد أثر تواتر الكلمات المستعملة في الجمل ومعناها على النتائج.
- 2) تحييد أثر ترتيب عرض التراكيب في النتائج.
- 3) الإبقاء فقط على أثر اختلاف التراكيب (أ، ب، ...، ي) الذي يمثّل في هذه التجربة المتغيّر المستقل (او مصدر التغيّر) الذي سوف يُدرّس تأثيره في درجة تذكّر هذه التراكيب المجسّدة في جمل معينة، وهو ما يمثّل المتغيّر التابع (أو التغيّر الحادث).

يُعطى للمفحوصين العشرين التعليمية الآتية (بالعامية): «يملك كل منكم دفترًا يضم في كل صفحة منه جملة معينة. سوف تقرأون كل جملة لمدة معينة وعند إعطاء إشارة الدق على الطاولة تقبلون الصفحة وتقرأون الجملة التالية وهكذا.

(*) يحتاج عرض هذه الخطة بصورة مفصلة الى شرح مطوّل أثّرنا ألا نخوض فيه لما قد يحثّله من حيّز واسع. لذا ولمزيد من التفصيل حول خطة المربّع الابجدي او اللاتيني انظر: FRAISSE, 1968، اسماعيل، بدون تاريخ.

بعد الانتهاء من قراءة كل الجمل سوف نطلب إليكم تذكرها. عليكم الانتباه بالآ تقلبون صفتين معاً كما نرجوكم التزام الصمت التام وعدم طرح الاسئلة اثناء سير الاختبار. والآن هل هناك من استفسارات؟». بعد الرد على الاستفسارات يبدأ الاختبار وتُعمد مدة خمس ثوان بين الإشارة والاخرى. وبعد الانتهاء من اجراء الاختبار يُطلب الى المفحوصين بأن يكتبوا في أعلى الورقة البيضاء التي في حوزتهم الاجابات عن الاسئلة التالية: ما هو تاريخ ميلادك - ما هو عنوانك - ما هو جنسك - هل كانت الجمل التي قرأتها صحيحة ام خاطئة، أجب بنعم او لا - ضع خطأً تحت هذه المعلومات. ويُقصد بهذه الاسئلة والاجابة عنها ايجاد فاصل زمني محدود بين قراءة الجمل واختبار تذكرها. بعد ذلك يُطلب الى المفحوصين: «الآن ابدأ بتسجيل كل الجمل التي تتذكرها على الورقة التي في حوزتك». بعد ان يفرغ جميع المفحوصين من تسجيل ما يتذكرونه من جمل تُجمع الاوراق وتفرز النتائج.

3 - فرز النتائج وتحليلها

مُيزنا في فرزنا لنتائج تذكر المفحوص للجمل بين ثلاث حالات أساسية:

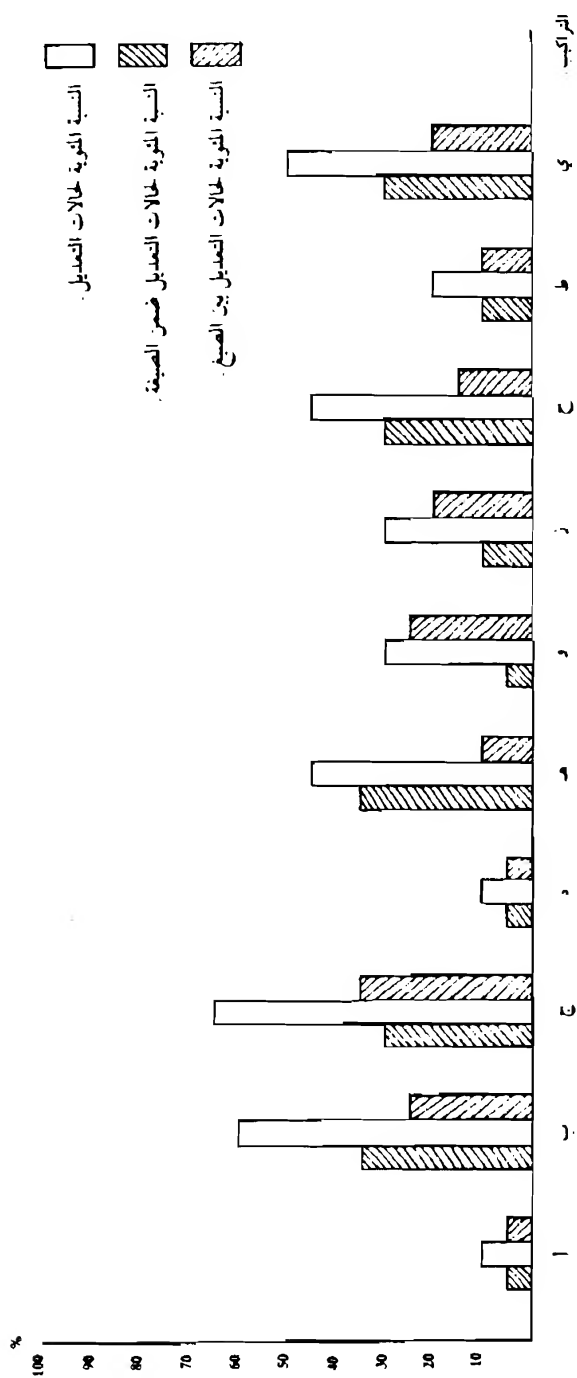
- (1) حالة الاستعادة الصحيحة للجمله،
 - (2) حالة النسيان التام للجمله،
 - (3) حالة تعديل الجمله من تركيبها الاصلي الذي وردت فيه في دفتر المفحوص الى تركيب آخر. ومُيزنا في هذه الحالة بين:
أ) التعديل الذي يتم ضمن الصيغة الواحدة كتعديل التركيب (ب) مثلاً الى التركيب (أ) ضمن الصيغة الواحدة (ص 1).
ب) والتعديل الذي يتم بين الصيغ المختلفة كتعديل التركيب (و) مثلاً من الصيغة (ص 3) الى التركيب (أ) في الصيغة (ص 1).
- على ذلك نجد في الجدول رقم 1 وفي الرسمين البيانيين رقم 1 و2 وبالنسبة لكل تركيب جملي (أ، ب، ...، ي) النسب المئوية لحالات الاستعادة الصحيحة والنسيان والتعديل ضمن الصيغة وبين الصيغ. كما نجد على يسار الجدول وبالنسبة لكل تركيب اتجاه تعديلاته وعددها الى التراكمات الاخرى ضمن الصيغة الواحدة وبين الصيغ المختلفة.

حالات التذكّر التركيب	عدد حالات الاستعادة الصحيحة	النسبة المئوية	عدد حالات النسيان	النسبة المئوية	عدد حالات التعديل ضمن الصيغة	النسبة المئوية	عدد حالات التعديل بين الصيغ	النسبة المئوية	مجموع عدد حالات التعديل	النسبة المئوية	اتجاه التعديلات ضمن الصيغة وعددها	اتجاه التعديلات بين الصيغ وعددها
أ	11	55	7	35	1	5	1	5	2	10	1 ← ب	1 ← ز
ب	2	10	6	30	7	35	5	25	12	60	7 ← أ	3 ← ز 1 ← و 1 ← د
ج	3	15	4	20	6	30	7	35	13	65	5 ← أ 1 ← ب	3 ← و 3 ← ز 1 ← ط
د	9	45	9	45	1	5	1	5	2	10	1 ← هـ	1 ← ي
هـ	3	15	8	40	7	35	2	10	9	45	7 ← د	1 ← ط 1 ← ي
و	4	20	10	50	1	5	5	25	6	30	1 ← ز	3 ← أ 1 ← ب 1 ← ج
ز	5	25	9	45	2	10	4	20	6	30	2 ← و	2 ← أ 1 ← ج 1 ← ي
ح	6	30	5	25	6	30	3	15	9	45	3 ← و 3 ← ز	3 ← أ
ط	5	25	11	55	2	10	2	10	4	20	2 ← ي	2 ← د
ي	5	25	5	25	6	30	4	20	10	50	6 ← ط	3 ← د 1 ← و
المجموع	53		74		39		34		73		المجموع العام: 53 + 200 = 73 + 74	
النسبة المئوية	26		37		19,5		17		36,5		المجموع العام: 26,5 + 100% = 36,5 + 37	

الجدول رقم 1 - عدد ونسبة حالات الاستعادة الصحيحة والنسيان والتعديل ضمن الصيغة وبين الصيغ واتجاه التعديل لكل تركيب جملي.



الرسم البياني رقم 1- النسب المئوية لحالات الاستمادة الصحيحة والنسيان والتعديل لكل تركيب مجلي.



الرسم البياني رقم 2 - النسب المئوية لحالات التعديل ضمن الصيغة وبين الصيغ في كل تركيب جلي.

نخلص من هذه النتائج الى ما يلي :

أ - التراكيب الأسهل على التذكر

يستعيد نصف المفحوصين على وجه التقريب أثناء التذكر التركيبين الجمليين (أ) و(د) استعادة صحيحة بحالتيهما الواردتين في اختبار الحفظ (أستعيدا بنسبة 55 و 45 % على التوالي) فيما تتفاوت نسبة الذين استعادوا باقي التراكيب استعادة صحيحة ما بين ربع المفحوصين تقريباً وما دون . يظهر إذاً ان التركيب الفعلي المثبت المبني للمعلوم (أ) والتركيب الفعلي المثبت المبني للمجهول (د) هما ، من بين التراكيب المدروسة ، التركيبان الأكثر تهيؤاً للحفظ في الذاكرة والاستعادة منها .

أضف ان هذين التركيبين (أ) و (د) هما ايضاً ، من بين التراكيب المدروسة ، التركيبان الأقل عرضةً للتعديل اثناء اختبار التذكر (فهما لم يتعدلا الا بنسبة 10 % فقط) . فهذان التركيبان يخضعان على ما يبدو الى حد بعيد لمبدأ كل شيء او لا شيء : فإما ان يستعادا استعادةً صحيحةً وإما ان ينسيا نسياناً تاماً (بنسبة 35 و 45 % على التوالي) الا انهما لا يتعدلان الى تراكيب اخرى الا فيما ندر .

ونلاحظ من جهة اخرى ان كلاً من هذين التركيبين لا يتعدل على الاطلاق اثناء التذكر الى الآخر . وتدعو هذه الملاحظة الى الاعتقاد بانهما تركيبان جليان مستقلان من الوجهة الذهنية واحدهما عن الآخر استقلالاً تاماً .

نستنتج مما تقدّم ان التركيبين الفعليين المثبتين المبني للمعلوم والمبني للمجهول (أ) و (د) هما ، من بين التراكيب المدروسة ، التركيبان الاسهل على التذكر والأقل تأثراً بالتعديل الذي قد ينشأ اثناء التذكر ، كما لا يتعدل على الاطلاق أحدهما الى الآخر في الذاكرة .

ب - التعديل ضمن الصيغة النحوية

يظهر بوضوح ضمن الصيغة (ص 1) بأن التركيبين (ب) و (ج) لا يتمتعان الا باحتمال ضعيف للغاية (10 و 15 % على التوالي) لأن يُحفظا في الذاكرة ويُسترجعا منها . فالذاكرة تميل الى ان تنسى هذين التركيبين نسياناً تاماً (بنسبة 30 و 20 % على التوالي) ، إلا أنها تميل في حدود أوسع الى ان تستعيدهما استعادةً معدلةً (بنسبة 60 و 65 % على التوالي) . والأهم من ذلك ان نلاحظ بان كل حالات تعديل (ب) ضمن (ص 1) (اي 35 %) ومعظم حالات تعديل (ج) ضمن (ص 1) (اي 25 % من اصل 30 %) اتجهت باتجاه (أ) ، فيما يكاد ينعدم تعديل (أ) الى احد هذين التركيبين . وعليه يمكن القول بان التركيب (أ) يتمتع ضمن الصيغة (ص 1) بقوة جذب في الذاكرة للتراكيب الاخرى (ب) و (ج) في هذه الصيغة . بكلام آخر ميل التركيبان الاسميان (ب) و(ج) ضمن الصيغة المثبتة المبنية للمعلوم (ص 1) الى ان يتعدلا او يتحوّلا اثناء التذكر الى التركيب الفعلي (أ) في هذه الصيغة .

ص 2 : نصادف في (ص 2) الظواهر نفسها التي صادفناها في (ص 1) : ينذر ان تستعيد الذاكرة التركيب (هـ) استعادة صحيحة (الا بنسبة 15 %) فيما تميل الى نسيانه نسياناً تاماً (40 %) او تعديله الى التركيب (د) (35 %) ، هذا فيما يكاد ينعدم تعديل (د) الى (هـ) . وعليه يمكن القول بأن التركيب (د) يتمتع ضمن (ص 2) بقوة جذب في الذاكرة للتركيب

(هـ). بكلام آخر يميل التركيب الاسمي (هـ) ضمن الصيغة المثبتة المبينة للمجهول (ص 2) الى ان يتعدّل او يتحوّل اثناء التذكّر الى التركيب الفعلي (د) في هذه الصيغة.

ص 3: لا توجد فروق هامة بين نسب المفحوصين الذين استعادوا التراكيب (و)، (ز)، (ح) ضمن الصيغة (ص 3) استعادةً صحيحة (20, 25, 30 % على التوالي). كما لا يوجد فرق هام في نسبة الذين نسوا التركيبين (و) و (ز) نسياناً تاماً (50, 45 % على التوالي)، فيما تعرّض التركيب (ح) لنسبة أقل من حالات النسيان التام (25 %). غير ان هذا التركيب الاخير (ح) قد خضع ضمن (ص 3) لأعلى نسبة من حالات التعديل (30 %) اتجه نصفها الى (و) ونصفها الآخر الى (ز)، فيما انعدم التعديل الى هذا التركيب (ح) انعداماً تاماً. يظهر إذاً بأن احتمال تذكر التراكيب (و)، (ز)، (ج) ضمن (ص 3) بصورها الصحيحة احتمال محدود ومتساو. بيد ان التركيبين (و) و (ز) يخضعان الى حد كبير لمبدأ كل شيء او لا شيء: فإما ان يُستعاد وإما - وهو الأرجح - ان يُنسى، الا انها لا يتعدّلان ضمن (ص 3) إلّا في حدود ضيقة ولا يتجه هذا التعديل الا باتجاه احدهما الى الآخر. أمّا التركيب (ح) فإن احتمال تذكره ونسيانه احتمال متساو على وجه التقريب، الا انه يميل بالدرجة نفسها من الاحتمال الى أن يتعدّل في الذاكرة الى احد التركيبين (و) و (ز).

لا يميز هذا التحليل للنتائج الا بظهور ميل التركيب الاسمي (ح) الى التحول عند استحضاره الى التركيبين الاسمي (ز) او الفعلي (و). غير ان تحليلاً اضافياً لهذه النتائج يُظهر لنا بغير تعسف وجود ميل أعم في الذاكرة الى تحويل التراكيب الاسمية في (ص 3) الى التركيب الفعلي: فمن أصل 9 تعديلات ضمن (ص 3) توجد 5 تعديلات من تراكيب اسمية (ز، ح) باتجاه التركيب الفعلي (و)، فيما توجد 3 تعديلات تتجه من تركيب اسمي يتبدى بالمفعول (ح) الى تركيب اسمي آخر يتبدى بالفاعل (ز)، وقد يجوز أن نعتبر هذه التعديلات الأخيرة بأنها «خطوة» نحو التركيب الفعلي (و). هذا ولم يظهر الا تعديل واحد فقط للتركيب الفعلي (و) الى التركيب الاسمي (ز). وعليه يمكن أن نقرّر وجود ميل حقيقي للتركيبين الاسمين (ز) و (ح) ضمن الصيغة المنفية المبينة للمعلوم (ص 3) الى أن يتعدّل أو يتحوّل اثناء التذكّر الى التركيب الفعلي (و) في هذه الصيغة.

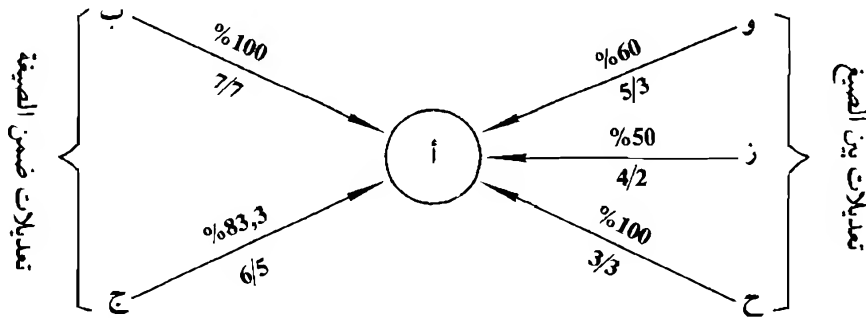
ص 4: يتساوى التركيبان (ط) و (ي) ضمن الصيغة (ص 4) بنسبة محدودة من حالات الاستعادة الصحيحة (25 %) ويتفاوتان بنسبة حالات النسيان التام (55 و 25 % على التوالي). بيد انه فيما لا يخضع التركيب الفعلي (ط) الا لنسبة ضئيلة (10 %) من حالات التعديل الى (ي) فان التركيب الاسمي (ي) يخضع لنسبة اعل (30 %) من حالات التعديل الى التركيب الفعلي (ط). يظهر إذاً ان التركيب (ط) يتبع ضمن (ص 4) مبدأ ان يُستعاد أو - وهو الأرجح - ان يُنسى فيما لا يتعدّل الى (ي) الا في حدود ضيقة، اما التركيب (ي) فيميل الى ان يُستعاد ويُنسى ويتعدّل الى (ط) بدرجات متساوية. يمكن القول هنا ايضاً بأن التركيب الاسمي (ي) ضمن الصيغة المنفية المبينة للمجهول (ص 4) يميل الى ان يتعدّل او يتحوّل اثناء التذكّر الى التركيب الفعلي (ط) في هذه الصيغة.

ج - التعديل بين الصيغ النحوية

ص 1/ ص 3: يكاد ينعدم احتمال تعديل (أ) اثناء التذكّر الى أيّ من التراكيب في الصيغ النحوية الاخرى. غير ان هذا التركيب الفعلي المثبت المبني للمعلوم يتمتع بطاقة جذب قوية لمختلف التراكيب المنفية المبينة للمعلوم (و)، (ز)،

(ح) المتتمية الى الصيغة (ص 3): فمن اصل (12) تعديلاً بين الصيغ الذي خضعت له هذه التراكيب المنفية ثمة (11) تعديلاً اتجه الى التراكيب المثبتة منها (8) تعديلات اتجهت تحديداً الى (أ). هناك اذاً ميل واضح للذاكرة الى ان تعدّل اثناء التذكّر التراكيب المنفية المبينة للمعلوم الى التركيب الفعلي المثبت المبني للمعلوم.

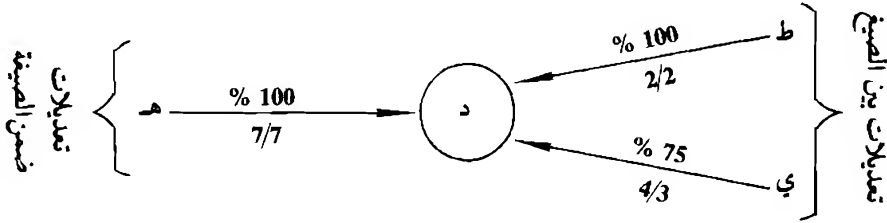
غير ان اللافت من جهة اخرى وجود الظاهرة المعاكسة ونعني بها وجود بعض التعديلات للتركيبين المثبتين (ب) و (ج) الى التركيبين المنفيين (و) و (ز): فمن اصل (5) تعديلات بين الصيغ خضع لها التركيب (ب) هناك (4) تعديلات الى (ز) و (و)، ومن اصل (7) تعديلات بين الصيغ خضع لها التركيب (ج) هناك (6) تعديلات الى (و) و (ز). تؤكّد هذه الظاهرة في المحل الاول على وجود روابط عقلية بين تراكيب (ص 1) وتراكيب (ص 3)، بين الاثبات والنفي ضمن صيغة المعلوم، فيما تؤكّد في المحل الثاني، ويربطها مع ما اكّدها اعلاه (ميل (و)، (ز)، (ح) الى التحوّل الى (أ) وشبه انعدام الميل المعاكس) ومع ما استنتجناه في (ص 1) (ميل (ب) و (ج) الى التحوّل الى (أ) وشبه انعدام الميل المعاكس)، على ان هذين التركيبين الاسمين المثبتين المبنيين للمعلوم (ب) و (ج) وهذه التراكيب الفعلية والاسمية المنفية المبينة للمعلوم تميل كلّها الى ان تتحوّل او تعدّل عند استحضارها من الذاكرة الى التركيب الفعلي المثبت المبني للمعلوم (أ). ويمكن تصوير هذه الظاهرة على الشكل التالي (نجد في الشق الاعلى من السهم نسبة التعديل الى (أ) فيما نجد في الشق الاذن عدد التعديلات الى (أ) من اصل مجموع التعديلات):



ص 2/ص 4: يكاد ينعدم احتمال تعديل (د) اثناء التذكّر الى أيّ من التراكيب في الصيغ النحوية الاخرى. غير ان هذا التركيب الفعلي المثبت المبني للمجهول (د) يتمتع مثله مثل (أ) بطاقة جذب قوية للتركيبين المنفيين المبنيين للمجهول (ط) و (ي) المتتمين الى (ص 4): فالتعديلات الستة بين الصيغ التي طرأت على هذين التركيبين تتجه خمسة منها الى التركيب (د). يوجد اذاً ميل للذاكرة الى ان تعدّل اثناء التذكّر التراكيب المنفية المبينة للمجهول الى التركيب الفعلي المثبت المبني للمجهول.

ويمكن من خلال ما ظهر من بعض التعديلات لـ (هـ) باتجاه (ط) و (ي) ان نؤكّد هنا ايضاً على الروابط العقلية التي تربط بين (ص 2) و (ص 4)، بين الاثبات والنفي ضمن صيغة المجهول. كما ان ربط هذه الظاهرة بما اكّدها اعلاه (ميل (ط) و (ي) الى التحوّل الى (د) وشبه انعدام الميل المعاكس) وبما لاحظناه في (ص 2) (ميل (هـ) الى التحوّل الى (د))

وشبه انعدام الميل المعاكس) يدعوننا الى الاستنتاج بأن التركيب الاسمي المثبت المبني للمجهول (هـ) والتركيبين الفعلي والاسمي المنفيين والمبنيين للمجهول (ط) و (ي) تميل كلها الى ان تتحوّل او تتعدّل عند استحضارها من الذاكرة الى التركيب الفعلي المثبت المبني للمجهول. ويمكن تصوير هذه الظاهرة على الشكل التالي:



ص 1، ص 3 / ص 2، ص 4: من الهام ان نلاحظ اخيراً بأنه يندر للغاية ان يتعدّل تركيب منتمٍ الى صيغة المعلوم (ص 1، ص 3) الى تركيب منتمٍ الى صيغة المجهول (ص 2، ص 4)، كما يندر حدوث العكس. فلم تظهر مثل هذه الحالات الا (4) مرات من اصل (34) تعديلاً بين الصيغ. ولعل ذلك ما يؤكد على استقلال هاتين الصيغتين، المعلوم والمجهول، احدهما عن الاخرى وعلى انعدام الروابط العقلية بينهما.

4 - خلاصات عامة ومحاولة تعليل

حاولت هذه الدراسة التجريبية ان تتحقّق من الاثر المتفاوت لبعض الانواع النحوية للجمل في احتمالات تذكّرها. وكان الهدف من وراء ذلك هو التنبّئ من تأثير العامل النحوي وحده مستقلاً عن عامل المعنى في سهولة او صعوبة تذكّر الجمل. ولهذه الغاية نُظِمَ تصميمٌ تجريبي (تصميم المربع الابددي) يسمح في آن معاً بتحديد أثر معنى الجمل وأثر تواتر الكلمات المستعملة في الجمل وأثر ترتيب ظهور الجمل في اختبار الحفظ فيما يستبقى على العامل النحوي - اي اختلاف الصيغ والتراكيب النحوية للجمل - وذلك لدراسة أثر هذا العامل في احتمالات تذكّر الجمل المتغيرة صيغةً وتركيباً. وعلى ذلك خُلِصَ الاختبار التجريبي الى النتائج العامة الآتية:

1 - تظهر الجملة الفعلية المثبتة المبنية للمعلوم (أ) والجملة الفعلية المثبتة المبنية للمجهول (د) بأنهما، من بين الجمل المدروسة، الجملتان الاسهل على التذكّر والأقلّ عرضةً للتعديل اثناء التذكّر، كما انها جملتان مستقلتان ذهنيّاً الواحدة عن الاخرى لانعدام التعديل في ما بينهما اثناء التذكّر.

2 - تميل الذاكرة في الغالب وبوجه عام الى تحويل الجمل الاسمية اثناء التذكّر الى جمل فعلية ضمن الصيغة النحوية الواحدة.

3 - يوجد ميلٌ غالب للذاكرة الى تحويل الجمل المنفية اثناء التذكّر الى جمل مثبتة، ويتجه هذا التحويل بوجه خاص الى الجملة الفعلية المثبتة. وعليه يتجه تحويل الجمل المنفية المبنية للمعلوم في الغالب باتجاه الجملة الفعلية المثبتة المبنية للمعلوم فيما يتجه تحويل الجمل المنفية المبنية للمجهول في الغالب باتجاه الجملة الفعلية المثبتة المبنية للمجهول.

4 - يكاد ينعدم إمكان تحويل الجمل المبنية للمعلوم اثناء التذكّر الى جمل مبنية للمجهول، وكذلك يكاد ينعدم اثناء التذكّر

إمكان التحوّل العكسي . ولعل في ذلك ما يؤكّد على استقلال هاتين الصيغتين للجمل احدهما عن الاخرى وانعدام الروابط العقلية بينهما .
كيف نعلّل هذه النتائج ؟
يمكن ان نفترض بوجه عام بأن الجملة الفعلية المثبتة (المنينة للمعلوم او المنينة للمجهول) تشكّل من الوجهة النحوية والعقلية اصلاً تتفرّع عنه طائفة من الجمل ، والادلة النفسانية على ذلك :

(1) انها الاسهل على التذكّر ،

(2) انها لا تتحوّل عند التذكّر الى جمل اخرى ،

(3) فيما تتحوّل إليها عند التذكّر جمل اخرى .

يعود ذلك على ما نفترض الى سببين متضافين : فالجملة الفعلية المثبتة تشكّل الجملة الأيسر نحويّاً وعقليّاً بمقارنتها مع الجمل المنفية فيما تشكّل الجملة الأكثر تواتراً في الاستعمال بمقارنتها مع الجمل الاسمية .

أ - البساطة : والواقع أن معيار «البساطة والتعقّد» معيار غير واضح في نحو اللغة ولا توجد في هذا النحو أدلة صورية (شكلية) صريحة يمكن الاستناد اليها للحكم على درجة بساطة الجمل او درجة تعقّدها . أمّا من الوجهة النفسانية فنملك معياراً مناسباً للبساطة والتعقّد اللغويين : فالجملة الأيسر هي الجملة الأيسر على المعالجة العقلية اي الأسهل على التذكّر والادراك والفهم والإنشاء . واستناداً الى هذا المعيار النفساني يمكن أن نستنتج بأن الجملة المثبتة أبسط من الوجهة النحوية والعقلية من الجملة المنفية (هذا بالطبع في حال تكافؤ كل العوامل النحوية الأخرى غير الإثبات والنفي بين الجملتين) . وتعليل ذلك على ما يبدو ان الاثبات يشكّل أصلاً للنفي بحيث ينبنى النفي على أساس الاثبات وتنبني الجملة المنفية على أساس الجملة المثبتة مضافاً إليها عملية النفي مجسّدة بأداة شكلية معينة (أداة النفي) . ولعل ذلك ما يفسّر هذا الميل في الذاكرة الى استحضار الجملة المنفية بالصيغة المثبتة ، أي الى استحضار الأعقد بصيغة الأيسر .

وعليه تبدو الجملة المثبتة لبساطتها النحوية النسبية أصلاً للجمل المنفية .

ب - التواتر : من الثابت تجريبياً ان الكلمات الأكثر تواتراً في استعمال اللغة تُدرك بصورة اسرع ويتم تعلّمها وتذكرها بصورة أسهل من الكلمات الأقل تواتراً . وينطبق ذلك ايضاً على سلاسل الكلمات وعلى الارتباطات بين الكلمات في الجمل . والحال ان الجمل الفعلية تبدو في استعمال اللغة العربية أكثر تواتراً من الجمل الاسمية : فالفعل يتصدّر الجملة في معظم الاحوال لان المتكلّمين بالعربية اعتادوا الاهتمام بالحديث قبل الاهتمام بفعل الحدث . ولهذا تبدو الجمل الفعلية افضل جهوزاً في الذهن وبالتالي أسهل تذكراً من الجمل الاسمية . وفي ذلك ما قد يفسر لنا هذا الميل العام للذاكرة الى ان تستحضر الجمل الاسمية محوّل الى جمل فعلية ، اي الى استحضار الاقل تواتراً بصيغة الأكثر تواتراً .

وعليه تبدو الجمل الفعلية لارتفاع تواترها النسبي في اللغة اصلاً للجمل الاسمية .

وفي الأخير كيف نعلّل التكافؤ في احتمال التذكّر بين الجمل المنينة للمعلوم والجمل المنينة للمجهول واستقلال هاتين الصيغتين احدهما عن الاخرى ؟ لنتناول الجملتين التاليتين : «أكل الولد الطعام» و«أكل الطعم» . الواقع ان هاتين

الجمليتين هما جملتان متكافئتان معنيً وبساطة نحوية. فإذا كان نفي الجملة المثبتة يبدل في معناها فإن تجهيل الجملة المعلومة لا يُحدث مثل هذا التبديل: ففي الحالين فإن أحداً - الولد في الحالة الاولى ومجهول في الحالة الثانية - أكل الطعام. كما ان هاتين الجملتين متفقتان من حيث البنية النحوية: فكلاهما جملة اسنادية متكافئة ومتعادلة ذات طرفين هما المسند والمسند اليه ويحتل فيهما الفاعل وما يسمى بنائبه منزلة نحوية واحدة، فهما مرفوعان ويُسد اليهما الفعل. هذا التعادل النحوي والدلالي بين الجملة المبينة للمعلوم والجملة المبينة للمجهول يدفع إذاً الى استبعاد الافتراض بأن إحداها أصلٌ للآخرى او ان إحداها متحوّلة نحويّاً من الاخرى. ولعل ذلك ما يفسّر هذا التكافؤ في استذكارهما وانعدام التحوّل بينهما عند التذكّر. فالبناء للمعلوم والبناء للمجهول عمليتان نحويتان مستقلتان الواحدة عن الاخرى. على كل ما تقدّم يتّبع تحليل نتائج هذه الدراسة وتعليلها بان نصيغ الخلاصة العامة الآتية على صورة فرض للبحث: تشكّل الجملة الفعلية المثبتة المبينة للمعلوم الجملة الاصلية التي تنفرّع عنها الجمل الاسمية المثبتة المبينة للمعلوم والجمل الفعلية والاسمية المنفية المبينة للمعلوم؛ هذا وتشكّل الجملة الفعلية المثبتة المبينة للمجهول جملةً اصليّةً مستقلةً تنفرّع عنها الجملة الاسمية المثبتة المبينة للمجهول والجمل الفعلية والاسمية المنفية المبينة للمجهول.

المراجع

- CHOMSKY (N). — Syntactic Structures, the Hayne, Mouton, 1957. — Structures syntaxiques, Trad. Franç., Seuil, 1969.
- CHOMSKY (N). — Aspects of the theory of Syntax, Cambridge, Mass., the M.I.T. press, 1965.
- Aspects de la théorie de la syntaxe, trad. Franç., Seuil, 1971.
- SEARLE (J.R.) — CHOMSKY et la révolution linguistique, La Recherche, 1973, 4, pp. 235-245.
- سيرل (ج. ر.). - تشومسكي والثورة اللغوية، ترجمة كمال بكداش، مجلة الفكر العربي، العدد 9/8، 1979، ص 123 - 143.
- HORMAN (H). — Introduction à la psycholinguistique, Larousse, 1972.
- MEHLER (J.), NOIZET (G.) — Textes pour une psycholinguistique, Mouton, 1974.
- PETERFALVI (J.M.) — Introduction à la psycholinguistique, P.U.F., 1970.
- FRAISSE (P.) — Manuel pratique de psychologie expérimentale, P.U.F. 1968, (3ème éd.), pp. 368-371.
- اسماعيل، عزت سيد. - علم النفس التجريبي، وكالة المطبوعات، الكويت، بدون تاريخ، ص ص ٤٧ - ٤٩.